

التراكم العالمى (*)

١٤٩٢ - ١٧٨٩

تأليف : أندريه جندر فرانك

عرض : احمد عبد الله زايد (***)

كثيرة تلك الدراسات التاريخية التي تهتم بسرد أحداث تاريخية مفصلة في فترة تاريخية بعينها وفي مكان معين ، ولكن قليلة تلك الدراسات التي تربط بين أحداث تاريخية مختلفة في أماكن عديدة من خلال رؤية نظرية لمسار التاريخ وتطوره والعوامل الفاعلة في هذا التطور . ويكتف تاريخ العلوم الاجتماعية عن أن أشهر الاعمال وأكثرها بقاء مع الزمن ، هي تلك الدراسات التي تنطلق من منظور شامل لا يهتم بسرد الأحداث الفريدة أو وصف الظواهر المجترأة ، وإنما يهتم بالربط بين كم هائل من الأحداث والظواهر لتدعيم وجهة نظر معينة حول بناء المجتمع وتغيره . ويكفي أن نشير في هذا السياق إلى أعمال كارل ماركس ، وماكس غير ، وأرنولد توينبي ، وآدم سميث .

والكتاب الذي نعرضه هنا يضع نفسه بجدارة — على صغر حجمه — وسط هذا النوع من الاعمال . وإذا كان أي من هذه الاعمال قد طور موقفا نظريا محددًا يختلف عن نظيره في الاعمال الأخرى أو يتشابه معها ، فإن كتاب فرانك من التراكم العالمى ينطلق من موقف نظري محدد يرتبط بتراث نظرية التبعية الذي ساهم فرانك نفسه في تأصيله . ظهرت نظرية التبعية في الستينات لتدحض نظرية التنمية الغربية ، وتقدم أساسا جديدا لتفسير ظاهرة التخلف في العالم الثالث يقوم على تضيئة أساسية مفادها أن علاقة التبعية والاستغلال التي تعرض لها العالم الثالث من جانب الدول الرأسمالية المتقدمة لم تؤد إلى أي شكل من أشكال التنمية ، وإنما أدت إلى مزيد من التخلف في هذه البلدان التابعة يقابله مزيد من التنمية والرفاهية في البلدان الرأسمالية المتقدمة . وهذا أمر منطقي طالما أن الفائض المنتج في البلدان

* Andre Gunder Frank, World Accumulation 1492 - 1989, The Macmillan Press LTD., London, 1978.

(***) مدرس بقسم الاجتماع — كلية الآداب ، جامعة القاهرة .

التابعة — أيا كان شكل انتاجه — ينقل باستمرار الى مركز العالم الرأسمالى، المتقدم . وقد اهتم فرائك في دراساته الصادرة قبل هذا الكتاب بتحليل هذه القضية الاساسية وما يرتبط بها من قضايا أخرى مع الاشارة الى مجتمعات أمريكا اللاتينية التى يوليهما اهتماما خاصا . وهنا تأتى أهمية الالمام بأعمال فرائك السابقة ، والالمام بتراث نظرية التبعية كما تطور في أعمال كتاب آخرين وخاصة أعمال سمير أمين وعمانويل والشتين قبل قراءة الكتاب الذى نعرض له هنا .

نقد ظهر كتاب « التراكم العالى » كمحاولة لتطوير وتنقيح القضايا النظرية المتعلقة بالتبعية ، وتدعيمها بشواهد تاريخية عديدة تخرج عن نطاق أمريكا اللاتينية لتشتمل العالم بأسره بمجتمعاته المتقدمة والمتخلفة على حد سواء . وقد كان ذلك مطلباً ضرورياً لنظرية التبعية طالما أنها تفترض أن العالم وحدة لا تتجزأ وأن تاريخه واحد من حيث أن العملية التاريخية التى حكمت تطوره واحدة ، واعنى تنمية التخلف في المجتمعات التابعة ، ونمية التنمية في المجتمعات الرأسمالية المتقدمة .

وينقلنا ذلك مباشرة لموضوع الكتاب . فإذا كان التخلف والتنمية وجهين لعملة واحدة ، فإن نقل رأس مال الدول الخاضعة وتراكمه في الدول الرأسمالية هو العملية الخفية المسببة لكل من التنمية (في مركز العالم) والتخلف (في التوابع) . فتاريخ التراكم هو تاريخ التنمية والتخلف . بتاريخه هو تاريخ النسق الرأسمالى العالى وما طرأ عليه من تحولات . ويتتبع الكتاب بدايات عملية التراكم وتطوره . وما احاط به من محاولات لاكتشاف العالم وغزوه . ومن ازدهار وكساد ، ومن ثورات وهروب ، من توسع في طرق التجارة وتغير في اتجاهاتها ، ومن تحولات اجتماعية داخل النسق العالى بمراكزه وتوابعه ، بحيث بدأ التاريخ وكأنه سلسلة متصلة انحلقت من كل هذه العمليات المختلفة والمتناقضة ، ولكنها تؤدى في النهاية الى نتيجة واحدة : مزيد من تراكم رأس المال في مركز العالم ، ومزيد من استنزافه ونهبه في التوابع .

يشتمل الكتاب على ستة فصول وخاتمة . جاء الفصل الاول بعنوان « التوسع في القرن السادس عشر » . ويبحث في الظروف التاريخية التى ادت الى ظهور النسق الرأسمالى العالى ، وبداية عملية التراكم . ولاشك

ان التاريخ الذي بدأ منه فرائك تحليله له دلالاته الخاصة . فهو تاريخ اكتشاف العالم الجديد ، او بالاحرى تاريخ التوسع الاوربي ناحية الغرب . وهو امر ترتب عليه تغيرات كثيرة في العالم كله (في اوربا الشرقية ، وحوض البحر المتوسط ، وافريقيا ، والهند) . ومن الطبيعي أن يبدأ فرائك هذا الفصل بتحليل الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية السابقة على التوسع الاوربي سواء في اوربا (تحول النظام الاقطاعي وتلبور الحاجة نحو اكتشاف طرق جديدة للتجارة ومصادر جديدة للمعادن الثمينة) ، او في بقية أجزاء العالم (الامبراطوريات التتبية في العالم الجديد ، والامبراطوريات والحضارات في العالم القديم) . ثم بدأ في شرح عملية التوسع نفسها ، فربط بين اكتشاف العالم الجديد وبين حاجة اوربا الى طرق تجارة جديدة الى الهند ، وحاجتها في نفس الوقت الى النقود والمعادن الثمينة . ولقد ترتب على اكتشاف العالم الجديد عملية تراكم يدائي في اوربا كانت الاساس الذي نهضت عليه الرأسمالية في مرحلتها التجارية الاولى . وهنا حسم فرائك قضية نظرية اثارها نظرية التبعية منذ ظهورها ، تلك هي قضية المؤثرات الخارجية والداخلية في تحول النسق الى نسق رأسمالي . واضطر فرائك هنا الى التحدث عن علاقة جدلية بين هذين النوعين من المؤثرات ، طارحا القضية التالية : تصبح العوامل الخارجية على درجة عالية من الاهمية عندما تنشط التجارة ، والعكس بالعكس . ودلل على ذلك من خلال بعض الشواهد التاريخية . فقد أدى ازدهار التجارة الى تغيرات نظامية في كل من اوربا الغربية والشرقية وأجزاء أخرى من العالم في القرن السادس عشر ، وعندما تعثر التوسع التجارى في القرن السابع عشر بدأ الكساد في اوربا واحتلت التغيرات في علاقات الانتاج الداخلية اولوية في عملية التحول .

وتناول الفصل الثانی هذا الكساد الذى ساد في القرن السابع عشر ، فرد مظاهر هذا الكساد الى تدهور أسبانيا وايطاليا ، وتدهور الاحوال في الامبراطورية العثمانية ، ونشوب الحرب في ألمانيا ، وجميعها أحداث ليست متصلة وانما تعبر عن ازمة عالمية واحدة . وينهم فرائك هذه الازمة على انها حل ضرورى تطلبه التطور الرأسمالي حيث كانت اساسا قام عليه التطور في المرحلة اللاحقة من التراكم الرأسمالي في القرن الثامن عشر .

وفي ضوء هذا الفهم يخصص فرائك فترات مستقلة من هذا الفصل لمعالجة مظاهر الكساد في مناطق محددة . فتحدث عن الكساد في حوض البحر المتوسط ، والكساد في شمال غرب اوربا ، وتأثير ذلك على التطور في آسيا وافريقيا والأمريكتين . وفي الفترة الاخيرة من هذا الفصل يتحدث فرائك عن تأثير هذا الكساد على التحولات التي طرأت على النسق الرأسمالي،

ويعود مجددا الى قضية المؤثرات الخارجية والداخلية . فاذا كان النمو الرأسمالي قد تأثر في القرن السابق بتراكم راسى المال المتحول من المستعمرات فان النمو في هذا القرن قد تم أساسا في علاقات الانتاج والامتاط الداخلية له . فالعوامل الخارجية التي تسبب التحول — التجارة فيها وراء البحار ونقل الفائض وتراكمه — قد اصابتها أزمة مؤقتة .

وجاء الفصل الثالث ليعالج التوسع الذى بدأ من جديد في القرن الثامن عشر وما اثاره هذا التوسع من حروب وعداوة وتنافس بين الدول المتوسعة . ولقد تم تمويل هذا التوسع الجديد من خلال المعادن النفيسة التي تم جلبها من عملية تجديد انتاج الفضة في المناطق التعدينية القديمة في أمريكا الاسبانية وفي بعض الاحيان من مناجم الذهب في البرازيل البرتغالية .

وكان هدف هذا التوسع التنافسى بين الدول الرأسمالية مزيد من تراكم المال . وقد استلزم ذلك ابداع اساليب جديدة للاستغلال وتطوير طرق التجارة . وقد حدث ذلك بالفعل حيث تطورت طرق التجارة بين جزر الهند الغربية ، وأوربا وأفريقيا ، وأمريكا الشمالية . وحملت خطوط التجارة هذه أفواجا من العبيد ليتم زرعهم في العالم الجديد من اجل انتاج السكر وغيره . ولقد عالج هذا الفصل كل هذه الموضوعات بالتفصيل . فهناك حديث متصل عن الحروب التي نشبت بين دول أوربا بسبب التنافس على التوسع واقتسام العالم ، وآخر عن عمليات البحث عن الذهب في البرازيل ، وثالث عن زراعة السكر والعبيد في البحر الكاريبي ، ورابع عن تجارة العبيد في أفريقيا . وأكد فرانك في هذا الفصل على أن التراكم الذى حدث في هذا القرن هو الذى أحدث التحول الرأسمالى الحقيقى المتمثل في الثورة الصناعية ، وذلك على حساب تخلف الدول التي نهبت منها هذه الاموال او ساهمت في انتاجها .

وخصص فرانك الفصل الرابع لدراسة التغير في المجتمع الهندى وآسيا بصفة عامة في اطار عملية التحول العالمى . فبيدا بمناقشة الغزو الأوروبى لآسيا من خلال الشركات التجارية ، ويعرض للآراء المختلفة حول نمط الانتاج الذى كان سائدا في آسيا في فترة ما قبل الثورة الصناعية . ثم يركز حديثه عن الهند فيؤكد على اندماج الهند في النسق الرأسمالى في الفترة ما بين ١٧٦٢ — ١٧٨٩ التي سبقت الثورة الصناعية ، ويربط بين هذا وبين التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي حدثت في الهند وعلاقة ذلك بعملية التراكم البدائى على مستوى العالم . ويهتم فرانك

ببعض النقاط التفصيلية في هذه العملية فيفرد فقرة خاصة عن نهب البنغال عن طريق شركة الهند الشرقية عام ١٧٩٣ ، وأخرى عن التفجيرات التي تركتها هذه العملية على الزراعة في الفترة من ١٧٥٧ - ١٧٩٣ ، وثالثة للتجارة والحرف ، ورابعة لمشروعات الاستثمار الخاصة .

ويغفل الفصل الخامس الفترة من ١٧٦٢ - ١٧٨٩ وهي تجزيت في تطور النسق الرأسمالي العالمي والتراكم العامل داخله بكساد ظاهر . ولكنها كانت فترة حاسمة في تاريخ البشرية حيث ظهرت مجموعة من الأحداث أدت الى ثورة في العالم كله : ظهور عصر التنوير في أوروبا ، ظهور الاختراعات الميكانيكية التي صاحبت الثورة الصناعية في إنجلترا ، الثورة الفرنسية ، الحرب الامريكية وعلان الاستقلال ، بداية الهجوم على تجارة الرقيق ، التعمق في غزو الهند ونهبها ، ادخال نجارة الافيون في الصين ، اكتشافات أوروبا في المحيط الهادى والتوسع الروسى جنوبا وشرقا ، تيقظ الامبراطورية العثمانية والاسبانية ، و باختصار ظهور الرأسمالية الصناعية كما نعرفها اليوم . وكان الكساد قد أعطى للنظام الرأسمالى دفعة في الداخل والخارج أدت الى أن يقف على قدميه من جديد .

وفي الفصل السادس يتحدث فرانك عن الثورة التجارية في القرن الثامن عشر حيث بدأ التوسع في طرق التجارة وتوزيعها وتغيير اتجاهاتها . وتعرض فرانك هنا للتغيرات التي طرأت على طرق التجارة وما ترتب على ذلك من ارباح في عملية تراكم رأس المال في شمال غرب أوروبا (خاصة بريطانيا) وفي الجزء الشمالى الشرقى من أمريكا . ولقد ساعدت هذه الثورة في طرق التجارة على النمو المتعظم للصادرات المصنعة الامر الذى أدى الى ازدهار الصناعة ، كما ارتبطت التجارة بالحروب ارتباطا وثيقا ، ولكنها خلقت ثورة في عملية التراكم على أى حال .

وفي النهاية يعرض فرانك في خانة الكتاب لبعض القضايا النظرية التى يثيرها تحليل النسق الرأسمالى . فيتحدث عن أشكال التراكم وارتباط كل شكل بمرحلة تاريخية معينة ، وعن علاقات الانتاج غير المتكافئة داخل النسق الرأسمالى وكيفية تحويل قيمة الاستعمال use value الى قيمة تبادلية exchange value من خلال التداول والتراكم وتأثير ذلك على تحول علاقات الانتاج غير المتكافئة ، وعن مراحل تطور النسق العالمى وازماته ، وعن الصراع الطبقي داخله .

وبعد هذا العرض لفصول الكتاب فان فرائك يؤكد هنا — مثلما يؤكد في دراساته السابقة — على ان علاقات التبعية وما يصاحبها من تراكم في رأس المال في مركز العالم لا تؤثر فقط على تشكيل البناء الاقتصادي المتخلف لبلدان العالم الثالث ، وانما تؤثر وتشكل ثقافة هذه البلدان وايدولوجياتها ونظام الدولة بها ولكنه لم يقدم في هذا الكتاب — ولا في كتبه السابقة — تحليل عميق للمستويات الثقافية والايديولوجية والسياسية لمجتمعات العالم الثالث ، الامر الذي يجعل نقاده يتهمون به انه من انصار الرد الاقتصادي + ترى هل سيسد فرائك هذه الثغرة في اطاره النظرى ام انه سيركها مجالا مفتوحا للبحث امام غيره من الباحثين ؟ المستقبل وحده هو الكفيل بالاجابة على هذا السؤال .